الآخر والبناء اللغوي في النثر العباسي

دراسة في نماذج مختارة

الباحث/ مصطفى أبو الفتوح محمود عبدالرحمن

إشراف

الأستاذة الدكتورة/ غادة جميل قرني

الملخص باللغة العربية:

جاء موضوع الدراسة متناولًا الآخر والبناء اللغوي في النثر العباسي، وقد وقف البحث عند بعض النماذج المختارة من الخطابة والوصايا والمنافرات والرسائل مستنبطًا دور الأساليب والتراكيب اللغوية في الكشف عن الآخر بتشكلاته المختلفة، وبما أن العصر العباسي قد شهد أحداثًا كثيرة، أنتجت للبيئة العباسية صورًا عديدة للآخر الخارجي، فإن الأديب قد تأثر بشكل جلي بثقافة الآخر في إبداعه، فحاوره وناقشه وجادله من أجل إثباته أو هدمه.

إن الأساليب والتراكيب اللغوية في النثر العباسي أسهمت في ظهور الآخر بتشكلاته المختلفة؛ كما أنها وضحت العلاقة التي تربط بين الأنا والآخر؛ إذ عبّر الأدباء والكتاب في نصوصهم النثرية عن رؤيتهم للحكم، وقد كشفت عن مقدرتهم الفنية في جذب انتباه المتلقي وإثارة ذهنه من خلال اعتمادهم على أسلوب بديع تحكمه الحجج المنطقية التي تكشف عن علاقة الذات بالآخر العربي وغير العربي على حد سواء، وتجلى ذلك في أسلوب التكرار والاستفهام والأمر وأسلوب التقديم والتأخير والاعتراض، فقد أشار الجاحظ إلى صفات الآخر/ الخليفة من خلال أسلوب الاستفهام ودلالاته المتنوعة، والتي جاءت كلها لتُسهم بدورها في تشكيل صورة الآخر/ الممدوح السلطان، وتأكيدًا على علاقته بالأنا/ المحكوم، التي تكشف للمتلقي عن مدى علاقة الأنا بالآخر، وقد أسهم أسلوب التقديم والتأخير في الكشف عن العلاقة الجدلية بين الذات والآخر من جانب، وصور الآخر بتشكلاتها المختلفة من جانب آخر، من خلال تقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم، فيسعى المتلقي لفهم تلك العلاقة المغايرة ومقاصدها.

الكلمات المفتاحية: الآخر؛ النثر؛ الأساليب؛ التراكيب؛ اللغة.

Abstract:

The Other and Linguistic Structure in Abbasid Prose

A Study of Selected Models

The subject of the study dealt with the other and the linguistic structure in Abbasid prose. The research stopped at some selected models of rhetoric, wills, disputes, and letters, deducing the role of linguistic styles and structures in revealing the other in its various forms. Since the Abbasid era witnessed many events, which produced for the Abbasid environment many images of the external other, the writer was clearly influenced by the culture of the other in his creativity, so he dialogued with it, discussed it, and argued with it in order to prove or destroy it.

The linguistic styles in Abbasid prose contributed to the emergence of the other in all its forms. It also clarified the relationship between the self and the other. As literary figures, writers, and caliphs expressed in their prose texts their vision of rule and caliphate, it revealed their artistic ability to attract the attention of the recipient and stimulate his mind through their reliance on a wonderful style governed by logical arguments that reveal the relationship of the self to the other, Arab and non-Arab alike.

This was evident in the style of repetition, interrogation, command, and style of introduction and delay. Al-Jahiz referred to the characteristics of the other/the caliph through the interrogative style and its various connotations, all of which came to contribute in turn to forming the image of the other/the Praiseworthy the Sultan, and to confirm his relationship with the ego/the ruled, which reveals to the recipient the extent of The ego's love for the other. The method of presentation and delay has contributed to revealing the relationship between the self and the other and the images of the other in its various forms, by presenting what deserves to be delayed, and delaying what deserves to be presented, so the recipient seeks to understand this different relationship and its purposes.

Keywords: the other; prose; methods; Compositions; language.

مقدمـــة:

إن الآخر هو أحد شيئين يكونان من جـنس واحـد، يتناقـضان أو يتنـافران أو يتباينان، وهو الذي يخالف الرأي أو النظرية أو الاتجاه السائد أو المذهب، وهو الـشخص أو الجماعة أو الحضارة أو الثقافة التي تختلف عن الذات أو المجموعة، وهو الـذي يمثّـل الغريب أو البعيد أو المختلف عن الهوية أو الانتماء، وله العديـد مـن الأبعـاد النفـسية والفلسفية والاجتماعية.

والنثر العباسي مادة ثرية ومصدر غنيّ يتضمن أنماطًا متعددة للآخـر، كـالآخر الأعجمي والآخر اليهودي والآخر المسيحي..، وهذه التشكلات تساعد فـي فهـم التـاريخ العباسي، والتعرف على الهوية والحضارة والثقافة العباسية على مستوياتها كافة.

وعلى إثر ذلك جاء عنوان البحث في **(الآخر والأساليب والبناء اللغوي في النثـر العباسي– دراسة في نماذج مختارة)**، وقد اختار الباحث هذا العنوان لعدة أسباب، أهمهـا: قيمة النثر العباسي وما يمثله من مكانة عظيمة في الأدب القديم. محاولة الوقوف على أهـم التشكلات الفنية للآخر في العصر العباسي وخاصة الأساليب والتراكيب اللغوية، واستنباط تلك الجماليات الخاصة بالنصوص النثرية في ذلك العصر.

وتأتي **أهمية الدراسة** من أهمية النثر العباسي ذاته من جانب، ودور الآخـر فـي تشكيل النثر العباسي من جانب آخر بوصفه مفهومًا اجتماعيًّا وثقافيًّا وسياسيًّا واسع المدى؛ **ويهدف البحث** إلى رصد دور الأساليب والتراكيب اللغوية في الكشف عن تشكلات الآخر في النثر العباسي.

أما عن المنهج فقد فرضت طبيعة الدراسة الاستعانة بآليات **المنهج الفنـي** الـذي يحاول الوقوف على التحليل الفني للنصوص النثرية، ومحاولة استنباط ذلك الجمال الكـامن بداخلها؛ إذ يسهم في رصد تشكلات الآخر، ومعرفة دور الأساليب اللغوية في الكشف عن الآخر وعلاقته بالذات العباسية، كما أنه يعالج القضايا الإنسانية بوصفها ظاهرة فنية.

أما عن **خطة الدراسة**، فقد جاءت في مقدمـة، وتمهيـد، ومبحثين، كالآتي:

المبحث الأول/ الأساليب اللغوية والآخر، ويضم الآتي:

- أسلوب التكرار.
- أسلوب الاستفهام.
- أسلوب الأمر.

المبحث الثاني/ التراكيب اللغوية والآخر، ويضم الآتي:

- التقديم والتأخير.
- الاعتراض.

التمهيد:

إن اللغة لها دور مهم في تشكيل الوعي والإدراك للإنسان، فالأديب على مستوياته كافة يعبّر عن خلجاته النفسية وغرائزه العاطفية وأفكاره ورؤاه الذاتية والمجتمعية معًا من خلال اللغة بتمظهراتها المختلفة، وهذا الأمر يُظهر للمتلقي طبيعة الواقع المعاصر، وما به من مجريات أثرت بشكل ملحوظ على الذات، وفي الوقت نفسه على الآخر؛ لأن اللغة هي أداة الفكر ووعائه؛ إذ إنها قناة معرفية تعمل على نقل الأفكار إلى المتلقي.

وقد وردت بتعريفات عدة؛ لارتباطها بكثير من العلوم والمعارف، فقد عرفها ابن جني بأنها " **أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم**"(١)، وجاءت على كونها " **نظام من الرموز الصوتية الاعتباطية يتم بواسطتها التعارف بين أفراد المجتمع، تخضع هذه الأصوات للوصف من حيث المخارج أو الحركات، التي يقوم بها جهاز النطق، ومن حيث الصفات والظواهر الصوتية المصاحبة لهذه الظواهر النطقية**" (٢)، وهي " **ظاهرة اجتماعية تستخدم لتحقيق التفاهم بين الناس**"(٣)؛ وعلى ذلك جاءت هذه الأداة لتعبّر عن موقف الأديب اجتماعيًّا وسياسيًّا وفكريًّا تجاه بيئته المحيطة به، فتظهر أفكاره وانتماءاته التي تشير إلى تقبل الآخر أو رفضه، فاللغة تحمل مؤشرات دالة على طبيعة العلاقة الجدلية بين الذات والآخر المختلف ثقافيًّا، فتتجلى صورة الآخر داخليًّا وخارجيًّا وتفاعله الإيجابي والسلبي مع المجتمع، فتارة يصبح عنصرًا فاعلًا في تطوره ونموه، وتارة أخرى يصبح عنصرًا هدامًا لثقافته وتكوينه.

ولقد شكلت الأساليب والتراكيب اللغوية في النثر العباسي أدوات فنية قوية أسهمت في تشكيل صورة الآخر، وذلك من خلال خلق تجربة جمالية عميقة للمتلقي، وفي الوقت نفسه، كشفت عن الأفكار والمعتقدات التي شكلت رؤية الكاتب للآخر والعالم من حوله.

(١) أبو الفتح ابن جني (ت٣٩٢ هـ)، الخصائص، تح/ محمد علي النجار، بيروت، عالم الكتب، ج١/ ٣٣.

(٢) خليل أحمد عمايرة، في التحليل اللغوي، مكتبة المنار، ط١، ١٩٨٧م، ص٢٥.

(٣) جمعة سيد يوسف، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، سلسلة عالم المعرفة ١٩٩٠م، ص٥١.

المبحث الأول/ الأساليب اللغوية والآخر:

تعد الأساليب اللغوية أداة قوية في تشكيل صورة الآخر في النص الأدبي، فهي لا تنقل المعنى فحسب؛ بل تسهم أيضًا في خلق انطباعات معينة لدى القارئ حول هذا الآخر، ومن بين هذه الأساليب، يأتي التكرار والاستفهام والأمر بأهمية خاصة في تشكيل صورة الآخر، سواء أكانت إيجابية أم سلبية.

-أسلوب التكرار:

يعد التكرار أحد الظواهر اللغوية التي حظيت بمكانة بالغة الأهمية داخل النص الأدبي؛ إذ تضفي بعض الدلالات البلاغية، وتكشف عن جماليات الخطاب الأدبي، فقد اهتم الكثير من البلاغيين واللغويين بظاهرة التكرار داخل النصوص الأدبية وبأثرها البلاغي؛ لارتباط تلك الظاهرة بأسلوب الأديب المبدع، وبمقاصده البلاغية الفنية؛ إذ تظهر صورة الآخر بتشكلاته المختلفة وعلاقته بالأنا في الوقت ذاته، ويتجلى ذلك من خلال تكرار الحرف أو الكلمة أو العبارة داخل السياق النثري؛ لذلك عرّفه عز الدين السيد بقوله: " **هو أسلوب تعبيري يصور انفعال النفس بمثير واللفظ المكرر فيه هو المفتاح الذي ينشر الضوء على الصورة لاتصاله الوثيق بالوجدان**" [(١)]، وعلى ذلك تترك ظاهرة التكرار أثرًا فعّالًا في نفس المتلقي، فيكشف القارئ من خلالها عن طبيعة الموقف سواء أكان سياسيًّا أم اجتماعيًّا، ومقاصد بعض الدلالات والجماليات الفنية، التي استطاع الكاتب أن يوردها داخل نصه النثري، ومن خلال تلك الظاهرة يستطيع الباحث الكشف عن حضور الآخر داخل ذلك السياق؛ وكما أن للتكرار قيمة ثقافية أيضًا له قيمة موسيقية؛ إذ إن مبعثها " **الانسجام في تكرار الوحدات الجزئية المكونة للكل**"[(٢)]؛ لذلك يسهم التكرار في إفراز جو مليء بالنغم الموسيقي يصاحب المعنى المراد.

١- تكرار الحرف:

يعد تكرار الحرف من أبرز أنواع التكرار الذي يؤدي دورًا مهمًا في سياق النص، " **فتكرار الحروف والأصوات له دلالات سماعية وإيقاع صوتي وتناغم دلالي للكلمة**" [(٣)]، فتكرار تلك الحروف على مستوى النص، يعطي إيقاعًا صوتيًّا يهيمن على دلالة النص وسياقه، ومن خلال تكرار الأصوات والحروف يستطيع المتلقي كشف حضور الآخر وعلاقته المتوترة بالأنا المختلف عنها فكريًّا وثقافيًّا وسياسيًّا ودينيًّا.

(١)عز الدين السيد، التكرير بين المثير والتأثير، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م، ص١٣.

(٢) ماهر مهدي هلال، جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والاعلام، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠م، ص٢٩٠.

(٣) ينظر: صالح سليم عبد القادر، الدلالة الصوتية في اللغة العربية، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، صـــ ٤٣.

تكرار الحرف والآخر السياسي:

ففي خطبة أبي العباس التي قالها حين توليته الخلافة العباسية، يلحظ أنه استعمل أسلوب التكرار، فبعد الصراع السياسي الدامي بين الأمويين والعباسيين؛ أضحى العباسيون يثبتون أحقيتهم في الخلافة، وأنهم أفضل وأقرب نسبًا من الأمويين، وجاء في خطبة أبي العباس السفاح إثبات تلك الأحقية، فظهرت الأنا المنتصرة سياسيًّا مقابل الآخر الراضخ المستسلم، حيث يقول:

" **الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة، وشرفه وعظمه، واختاره لنا، وحصنه، والقوّام به، والذابّين عنه، والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصنّا برحم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وقرابته، وأنشأنا من آبائه، وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نبعته..، ووضعنا من الإسلام وأهله من الموضع الرفيع، وبنا هدى الناس بعد ضلالتهم، وأظهر بنا الحق، وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا من كان منهم فاسدًا، ورفع بنا الخسيسة، وأتم بنا النقيصة..**". (١)

تبرز تلك الخطية حقيقة الصراع السياسي، الذي قام بين الدولتين الأموية والعباسية؛ إذ انشطرت الذات العربية إلى أنا منتصرة متمثلة في العباسيين وآخر منهزم متمثل في الأمويين، فكل من العباسيين والأمويين يرون أنهما أحق بالخلافة، وهذا الصراع العربي بين الدولتين دام لفترة طويلة حتى آلت الخلافة للعباسيين.

ومن خلال أسلوب التكرار يلحظ أن الآخر المتمثل في الأمويين له حضور مهيمن، وتجلى ذلك من خلال تكرار بعض الحروف، التي استعملها الخليفة العباسي أبي العباس السفاح؛ إذ إنه يسعى إلى إثبات أحقية العباسيين بالخلافة، بينما يسعى الآخر/ الأموي إلى استرداد الخلافة من العباسيين، ويظهر ذلك عن طريق التكرار، وهو تكرار حرف/صوت (**النون**) المتمثل في (**ضمير المتكلمين نا**)، فصوت النون " **من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة، غير أنه تجتمع فيه صفتين من أقوى الصفات وهما الغنة والجهر**"(٢)، فالحضور التكراري لصوت النون مع الضمير يحيل إلى حضور الآخر السياسي، ويدل على تمكّن المعنى، وهو الامتلاك والقوة للأنا العباسية، ونفي الأحقية عن الآخر، فيسهم صوت النون في استحضار الذات الحاكمة للآخر الأموي، ومن ذلك: (**واختاره لنا، وألزمنا، وأنبتنا، واشتقنا، ووضعنا، وبنا، وأظهر بنا..**)، فتكرار صوت النون مع الضمير يهيمن على النص بشكل جلي، ويعطي انسجامًا دلاليًّا في إظهار أحقية

(١) ينظر: أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العرب الزاهرة، مصر، مكتبة مصطفى الحلبي، ط١، ١٩٣٣م، جـ٣، صـ ٢.

(٢) ينظر: مراد عبد الرحمن ميروك، من الصوت إلى النص نحو نسق منهجي لدراسة النص الشعري، عالم الكتب، ١٩٩٣م، صـ ٧٥.

العباسيين للخلافة، وفي الوقت نفسه يظهر صورة الآخر الذي يسعى إلى استراد الخلافة.

كما أن ضمير المتكلمين الذي استعمله الخليفة العباسي في خطبته، يدل على العظمة والكبرياء، وبالأحقية بالخلافة من الآخر الأموي، فالعباسيون أرادوا كشف حقيقة الصراع، وأنهم هم أصحاب الخلافة، فاستعمل الخطيب الضمير(**نا**) الذي يعطي القيمة الدلالة لأحقيتهم في الخلافة، ويظهر الصورة الحقيقية للآخر السياسي.

فبينما تسعى الذات في إثبات كل هذه المعاني من خلال تكرار الضمير وصوت النون، هو في الوقت ذاته ينفي عن الآخر الأموي تلك المعاني، فالسفاح يظهر حقيقة العباسيين وأحقيتهم، ويظهر أيضًا مساوئ الآخر الأموي، وأنه غير مستحق للخلافة، التي أخذها بغير حق من بني العباس، فكان تكرار صوت النون المسيطر على النص، هو الأداة التي كشفت عن ظهور صورة الآخر المغاير فكريًّا وسياسيًّا، والتي تناسبت مع معاني الامتلاك والأحقية التي أرادها السفاح، ومع كل تكرار لصوت النون في الضمير (نا) حضور للآخر، فهو يثبت أن الله اختارهم أي العباسيين، بينما أزال الله الأمويين من الخلافة، أيضًا يثبت أفضلية نسب العباسيين عن الآخر الأموي، فكشف تكرار الصوت/ الحرف عن حضور الآخر وعلاقته بالذات العباسية، فالسفاح أراد أن يعلي من شأن العباسيين، ويظهر حقيقة الآخر بذكر فضائل بني العباس، وهذا ما أكسب الآخر حضورًا واضحًا في ثنايا النص.

تكرار الحرف والآخر الداخلي:

ويتجلى ذلك في وصية (طاهر بن الحسين) لابنه (عبد الله) لما ولاه (المأمون) الرقة ومصر وما بينهما، فيقول:

" **ولا تحقرن ذنبًا، ولا تمالئن حاسدًا، ولا ترحمن فاجرًا، ولا تصلن كفورًا، ولا تداهنَّ عدوًا، ولا تصدقن تمامًا، ولا تأمنن غدارًا، ولا توالين فاسقًا، ولا تتبعن غاويًا، ولا تحمدن مرائيًا**"

تعد هذه الوصية مرآة عاكسة لمفهوم "الآخر" في الثقافة التي انتجت هذه الوصية، حيث يمثل الآخر تحديًا للأخلاق والقيم، وتهديدًا للأمن والاستقرار، وتدعو الوصية إلى الحذر من الآخر، والتعامل معه بحكمة وحذر، والتمسك بالقيم والأخلاق الحميدة.

والآخر في هذه الوصية يمثل مجموعة متنوعة من الأشخاص الذين قد يتفاعل معهم الفرد في حياته، ويمكن تصنيفهم إلى عدة أنواع: **الآخر المتجاوز**/ وهو الشخص الذي يرتكب الذنوب والمعاصي، مثل/ الحاسد والفاجر والكافر. **الآخر المعادي**/ وهو الشخص الذي يحمل العداء والكراهية، مثل/ العدو والغدار. **الآخر المراوغ**/ وهو الشخص

الذي يتظاهر بصفات حميدة وهو في الحقيقة يحمل نوايا سيئة، مثل/ المرائي. **الآخر الضال**/ وهو الشخص الذي يتبع الشهوات والأهواء، مثل/ الغاوي والفاسق.

ويعد الآخر بتشكلاته المختلفة في هذه الوصية خطرًا محتملًا على الفرد والمجتمع، سواء كان هذا الخطر مباشرًا أو غير مباشر.

وإن تكرار حرف النون في نهاية كل فعل في هذه الوصية يمثل أداة بلاغية قوية تسهم في تشكيل صورة نمطية عن "الآخر" الذي يجب تجنبه، وهذه الصورة مبنية على مجموعة من القيم الأخلاقية والدينية، وتهدف إلى توجيه سلوك المتلقي وتقويته.

٢-تكرار الكلمة:

تُشكل الكلمة الركن الرئيس لأي نص أدبي، وتكرار اللفظة/الكلمة في النص نفسه يعطي دلالة فنية تتناسب مع سياق النص والمعنى المراد من تكرار تلك اللفظة، "**فتكرار الكلمة لا يحدث عشوائيًا، وإنما يعمد المبدع أو الأديب إلى تكرار بعض الألفاظ لربط الكلمة بصلة وثيقة مع النص، وإلا كان التكرار متكلفًا**" (١) ومن خلال تكرار الكلمة في النص الأدبي يستطيع المتلقي أن يكشف عن حضور الآخر وعلاقته بالأنا؛ ويكشف عن علاقة الأنا التي تسيطر على النص بالآخر الذي يستسيغه المتلقي من هذا التكرار، فالكلمة التي تكررت في النص، جاءت من أجل ترسيخ بعض المعاني في ذهن المتلقي.

تكرار الكلمة والآخر العقائدي:

تأتي مناظرة أبي حنيفة مع جماعة من الزنادقة؛ لتكشف عن حضور الآخر العقائدي في النص وصلته بالأنا؛ إذ ناظر أبو حنيفة جماعة من الزنادقة، والذي يقوم مذهبهم على التشكيك في وجود الله، وأن هذا الكون قائم بذاته لا يديره أحد، فقد قال ابن أبي العز:

"**يحكى عن أبي حنيفة -رحمه الله- أن قومًا من أهل الكلام أرادوا بحث معه في توحيد الربوبية، فقال لهم: أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة عن سفينة في دجلة تذهب فتمتلئ من الطعام والمتاع وغيره بنفسها، وتعود بنفسها، فترسى بنفسها، وتفرغ وترجع كل ذلك من غير أن يدبرها أحد، فقالوا: هذا محال لا يمكن أبدا، فقال لهم: إذا كان هذا محال في سفينة فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله.**" (٢)

يلاحظ في هذه المناظرة أن الإمام أبا حنيفة يناظر الزنادقة بطريقة منطقية تقوم على إثبات الحجج وإنكار ما يثبتون من التشكيك في وجود الله، فاستعمل الإمام أبو حنيفة

(١) ينظر: دهنون أمال، جماليات التكرار في القصيدة المعاصرة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، بسكرة ع١ و٢، جانفي، جوان، ٢٠٠٨م، صـ٧.

(٢) ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية، صدر الدين بن علي بن محمد، المكتب الإسلامي، ط٤ ، بيروت، ١٩٧١م. ج١، ص٨٣.

الحجج المنطقية واللغوية في إنكار مسألتهم، فنرى أن أبا حنيفة كرر لفظ **(نفسها)** ثلاث مرات في مناظرة موجزة، وهذا اللفظ يحيل إلى **الآخر العقائدي**، فالزنادقة يشككون في وجود الله، ولفظ النفس في المناظرة جرى مجرى قاعدتهم العقدية التي تقول إن الكون ليس له مدبر ويقوم بذاته، فأتى أبو حنيفة بمثال السفينة ليهدم لهم قاعدتهم العقدية؛ إذ يرون أن السفينة لا تستطيع أن تسير وتمتلئ بنفسها وتعود أيضًا بنفسها، فكرر لفظ (النفس) لاستحضار عقيدتهم الفاسدة، وبطلان حجتهم بالعقل والمنطق، فتكرار اللفظ في هذه المناظرة أدّى دورًا مهمًا في الكشف عن الآخر العقائدي، والذي يمثله الزنادقة، وعلاقته بالأنا، والذي يمثله عقيدة التوحيد عند أبي حنيفة.

فأسهم لفظ **(بنفسها)** في فهم المتلقي لحقيقة الآخر العقائدي، وعلاقته بالأنا، فأبو حنيفة بعقيدة التوحيد أراد أن يثبت أن الله هو القائم بأمر الكون والمدبر له، فاستخدم مثال السفينة وكرر اللفظ (نفسها) مع كل فعل تفعله السفينة، والحجة نفسها أثبتت بطلان عقيدة الزنادقة، فالآخر العقائدي أنكر أن السفينة تتحكم في ذاتها، والأولى القول إن الكون له إله ومدبر قائم به.

٢- تكرار الجملة:

يعد تكرار الجملة أو العبارة من أشد أنواع التكرار تأثيرًا في بنية النص وسياقه، فتكرار الجمل والعبارات في النص يصنع نسيجًا متماسكًا يحيل المتلقي إلى معاني متباينة يقصدها الأديب إثر هذا التكرار، وقد يأتي تكرار العبارة أو الجملة؛ ليشكل أحد أنماط الآخر في النص الأدبي وعلاقته بالأنا.

تكرار العبارة والآخر غير العربي:

ذكر الجاحظ في إحدى رسائله حديثًا عن مناقب الترك؛ لكن في ثنايا هذه الرسالة جاء حديثه عن أمة العرب، وفضلهم على الأمم الأخرى، ويلحظ أن الجاحظ أضفى على النص حضور الهويّة والثقافة العربية، وفضل أمة العرب، والتي مثلت الأنا العربي؛ كما أن ذكره لفضائل أمة العرب أوجب حضور الآخر المتمثل في الأمم والشعوب الأخرى/ الآخر غير العربي، فيذكر الجاحظ مفاخرًا بأمة العرب فيقول:

"**ونحن قومٌ لنا أجسامٌ وأجرام، وشعورٌ وهام، ومناكب عظام، وجباهٌ عراض وقصر غلاظ وسواعد طوال... ونحن أكثر مادة، وأكثر عدداً وعدّة، ولو أن يأجوج ومأجوج كاثروا من وراء النهر منا لظهروا عليهم بالعدد، فأما الأيد وشدّة الأسر، فليس لأحد بعد عادٍ وثمود والعمالقة والكنعانيين مثل أيدنا وأسرنا، ولو أن خيول الأرض وفرسان جميع الأطراف جمعوا في حلبة واحدة، لكنا أكثر العيون، وأهول في الصدور.**

ومتى رأيت مواكبنا وفرساننا وبنودنا التي لا يحملها غيرنا، علمت أننا لن نُخلق إلاّ القلب الدول، وطاعة الخلفاء، وتأييد السلطان، ولو أن أهل التبت ورجال الزابج وفرسان الهند، وحلبة الرّوم هجم عليهم هاشم بن اشتاخنج لما امتنعوا من طرح السلاح والهرب في البلاد." (١)

يلحظ في هذا النص تكرار عبارة (لو أن) أسلوب الشرط بحرف الشرط (لو)، وهو حرف يفيد امتناع لامتناع، أي امتناع وقوع الجواب لامتناع وقوع الشرط، واستعمال أسلوب الشرط من قبل الجاحظ ناتج عن القيمة الدلالة لتكرار عبارة الشرط (لو أن)، والتي تؤكد أفضلية أمة العرب على غيرهم، فتكرار أسلوب الشرط بـ (لو أن) ثلاث مرات، (ولو أن يأجوج ومأجوج..، ولو أن خيول الأرض وفرسان جميع الأطراف..، ولو أن أهل التبت ورجال الزابج)، يوحي بافتخار الجاحظ بأمة العرب وثقافتها وفضلها على سائر الأمم، واستخدام أسلوب التكرار أحال المتلقي للكشف عن علاقة الأنا بالآخر، فالأنا تمثلت في أمة العرب وثقافتها وهوّيتها، أما الآخر فجاء متمثلًا في الأمم الأخرى غير العرب/ الآخر غير العربي.

فالجاحظ يعيش حالة من الفخر والشجاعة، وهو يتحدث عن أمة العرب، غير أن الرسالة في مناقب الترك؛ لكنّ ذاتية الجاحظ وهوّيته العربية هيمنت على النص؛ لذلك حفل النص بالكثير من العبارات، التي تؤيد أفضلية العرب على الأمم الأخرى، كالفرس والروم والترك، ومن بين تلك العبارات، التي كشفت حضور الآخر غير العربي في النص، هي عبارة (لو أن)، فهو يتفاخر بأمة العرب عن سائر الأمم في القوة والعدد ورجاحة العقل وقوة البيان.

فيتحدث عن عدد العرب وهيبتهم فيقول:" **ولو أن خيول الأرض وفرسان جميع الأطراف جمعوا في حلبة واحدة، لكن أكثر العيون، وأهول في الصدور**"(٢)، فأسلوب الشرط هنا أدّى دورًا مهمًا في الكشف عن حضور الآخر/ غير العربي، أي لو حدث اجتماع كل خيول الأرض وفرسانها في مكان واحد؛ لكانت أمة العرب أكثر وضوحًا وأبيّن في الظهور، وهذا تفاخر بكثرة العرب، وفي ذات الوقت يكشف هذا التفاخر عن الآخر غير العربي، أي أن الأمم الأخرى لا تضاهي العرب في عددهم وكثرتهم، فالتكرار أسهم في الكشف عن حضور الآخر وعلاقته بالأنا؛ كما أدّى دورًا في انسجام دلالة النص مع حضور الآخر، التفاخر بأمة العرب وفضلهم عن الأمم الأخرى. إن العلاقة بين الأنا

(١) الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)، رسائل الجاحظ، تحقيق/ عبد السلام هارون، القاهرة– مكتبة الخانجي، ١٩٦٤م، جـ١، صـ١٧.
(٢) المصدر نفسه.

والآخر هنا علاقة قائمة على الافتخار والتعظيم، فقد لوحظ في كلام الجاحظ توقيره وتعظيمه للآخر/ الممدوح؛ ومما يوضح صدق محبته، إصراره في تأكيد صفات الممدوح للمتلقي، كل هذا يؤكد على حضور الآخر وتشكلاته في بنية النص.

-أسلوب الاستفهام:

إن أسلوب الاستفهام من أحد الأساليب البلاغية، التي تضفي على النص قيمة جمالية بلاغية، ودلالات تسهم في إنتاج معاني خفية للمتلقي، وتتفاعل القيم الجمالية لأسلوب الاستفهام مع سياق النص بصورة ذهنية تثير ذهن المتلقي، فالاستفهام يقوم على التساؤل والاستفسار، وكشف الغموض، وإيضاح دلالات لا تظهر إلا من خلال استعمال الاستفهام في سياق النص، فهو " **طلب حصول صورة ذهنية، أو طلب العلم بشيء لم يكن موجودًا من قبل**"(١)، فيلجأ المبدع في كثير من الأحيان إلى الاستفهام؛ لإثارة ذهن المتلقي، واستيضاح معنى خفي في السياق؛ كما يستطيع الاستفهام الكشف عن حضور الآخر في النص الأدبي وعلاقته بالأنا، من خلال أغراض الاستفهام وبلاغته.

كما يقوم الاستفهام داخل النص على بعض الأغراض التي تساعد في فهم دلالة النص كتقرير معنى أو تأكيد صورة، أو التعجب أو الإنكار، أو التعظيم، وغيرها من الأغراض البلاغية المهمة، كذلك يستطيع الاستفهام إبراز صورة الآخر والكشف عن تشكلاته داخل النص وعلاقته بالذات.

وجاء ذلك واضحًا في رسالة الجاحظ في "مناقب خلفاء بني العباس" مادحًا أحد خلفاء بني العباس، قائلًا: " **وقد كان المثل جرى بغيره في غير عنصره فتطلبته الأمثال وتنازعت إليه الأقوال، وحنّ إليه قلب الزاهد، وتاقت إليه نفس الراغب، فهو جماع الخير ومفتاحه، ورفاع الشر ومغلاقه، فهل رأيتم كعقد أمانه جماع وثبات عهده، ودوام وفائه على بعد مداه، وتقادم عصره، وثقل مؤنته والصبر على مكروهه؟! وهل رأيتم أفعالاً أشبه بأخلاق، وأخلاقاً أشبه بأعراق من أفعاله بأخلاقه، وأخلاقه بأعراقه؟! وهل سمعتم بأعدل منه في حكمه، ولا أقصد في فعله...وهل وضع أصلاً فلم يفرّعه، وركناً فلم يشيّده، وأمراً فلم يستتمه...وهل علمتم أحداً نصب له في خاصة نفسه حرباً وجّه نحوه جنداً؟، وهل نصب له إلاّ من نصب للإسلام، وهل عاداه إلاّ من عادى القرآن؟ وهل رأيتم الحقّ والقول بالحق في زمان قطّ أقوى..**". (٢)

(١) ينظر: مصطفى الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المكتبة العصرية – بيروت– لبنان– ط١، صـــ ٨٥.

(٢) محمد محمود الدروبي، رسالة جديدة للجاحظ في مناقب خلفاء بني العباس: دراسة وتحقيق، الكويت: حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية ٢٢ (الرسالة ١٨٧)، ٢٠٠٢م، ص٦٥.

يتبين من كلام الجاحظ استخدامه لأسلوب الاستفهام في النص بصورة واضحة؛ بل يكاد يهيمن على بنية النص، فيشير الجاحظ في هذا النص إلى مدح أحد خلفاء بني العباس، فيوجه خطابه للمتلقي بأسلوب الاستفهام الذي تنوعت دلالته في النص، واستطاع أن يكشف عن حضور الآخر/ الممدوح وتشكلاته من خلال أسلوب الاستفهام وعلاقته بالأنا، فيبدأ الجاحظ واصفًا ممدوحه بصورة قوية تثير ذهن المتلقي، **فيقول:**" **فهل رأيتم كعقد أمانه جماع وثبات عهده، ودوام وفائه**"، فيصف الجاحظ هنا الممدوح/ الخليفة العباسي، والذي يمثل صورة الآخر، باستفسار دلالته الإنكار، فهو يستنكر وجود وفاء وعهد كما في الخليفة الذي يمدحه، وهنا يلحظ أن الاستفهام استحضر صورة الآخر، وكشف عن علاقته بالأنا المتمثلة في الجاحظ/ المملوك، والذي يوضح صدق محبته لخليفته.

ثم يكمل الجاحظ صفات الآخر/ الممدوح بأسلوب الاستفهام نفسه، قائلًا:" **وهل سمعتم بأعدل منه في حكمه**" [(١)] وهنا يؤكد ويقر بعدل الخليفة، وفي الاستفهام أيضًا استحضار لصورة الآخر، وتتضح أيضًا علاقة الأنا بالآخر، وهي صدق المحبة، والإصرار في تعظيم الآخر؛ لذلك استخدم أسلوب الاستفهام؛ ليقنع المتلقي بصفات الآخر، ويثبت حضوره، ويتابع الجاحظ إظهار صورة الآخر/ الممدوح من خلال تأكيد صفاته، فيذكر قوته وهيبته في الحفاظ على القرآن والدفاع عن الإسلام؛ كما يذكر أن قول الحق في زمانه كان أظهر وأبين من أي زمن آخر.

نهاية يمكن القول: إن الجاحظ أشار إلى صفات الخليفة بأسلوب الاستفهام ودلالاته المتنوعة، والتي جاءت كلها لتُسهم بدورها في تشكيل صورة الآخر/ الممدوح السلطان، وتأكيدًا على علاقته بالأنا/ المحكوم، التي تكشف للمتلقي مدى حب الأنا للآخر.

-أسلوب الأمر:

من الأساليب البلاغية التي تأتي لأغراض جمالية مجازية، فيخرج الأمر من حقيقته إلى دلائل أخرى تناسب السياق، **فالأمر هو "طلب الفعل طلبًا جازمًا على وجه الاستعلاء**" [(٢)]، ويأتي أسلوب الأمر في صيغ مختلفة، كفعل الأمر، والمضارع المقرون بلام الأمر، واسم فعل الأمر، والمصدر النائب عن فعل الأمر، ويأتي أسلوب الأمر لأغراض حسب المقام، " **فتتعدد الأغراض ما بين الإباحة، والتهديد، والتعجيز، والالتماس، والدعاء، وغيرها من الأغراض التي تلاءم السياق.** [(٣)]

(١) المصدر نفسه.

(٢) ينظر: الخطيب القزويني (ت: ٧٣٩هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد خفاجي، دار الجيل- بيروت- ط٣- صـ ١١٦،١١٧.

(٣) المصدر نفسه.

ويستعمل أسلوب الأمر بصيغه المختلفة في النص الأدبي بدلالته المجازية، والتي تساعد المبدع أو الأديب في إيصال المعاني المتعددة لذهن المتلقي؛ كما يسهم أسلوب الأمر في تشكل صورة الآخر، فالأصل أن يخرج الأمر من شخص يوجه الفعل لمستقبل على وجه الخصوص، ويكون الفعل حسب الدلالة، فيخرج من الأدنى إلى الأعلى؛ فيكون غرضه الالتماس، ويصدر من الأعلى إلى الأدنى، فيكون غرضه الوجوب.

ومن خلال العلاقة القائمة في أسلوب الأمر بين ذات تصدر الأمر وذات أخرى تستقبل الأمر، فهي العلاقة نفسها بين الأنا والآخر، فهي علاقة تلازمية، فيستطيع أسلوب الأمر الكشف عن حضور الآخر في ثنايا النص وعلاقته بالأنا.

أسلوب الأمر والآخر السلطة:

جاءت خطبة وفد أهل الشام على الخليفة المنصور بعد انهزام عبد الله بن علي، مشيرة إلى صورة الآخر وتشكلاته/ السلطة، فالأنا المتمردة متمثلة في صورة وفد أهل الشام، بينما الآخر/ السلطة متمثل في الخليفة أبا جعفر المنصور؛ ليلتمس العفو والاستعطاف، فبعد تمرد أهل الشام بسبب عبد الله بن علي وقضاء الخليفة المنصور على حركته، لم يجد أهل الشام سوى استعطاف الخليفة المنصور وطلب العفو منه.

ولما حضر الوفد في بلاط الخليفة، قام الحارث بن عبد الرحمن الغفاري يتحدث نائبًا عن الوفد فقال:

" **يا أمير المؤمنين، إنا لسنا وفد مباهاة، وإنما نحن وفد توبة، وإنا ابتلينا بفتنة استخفت كريمنا، واستفزت حليمنا، ونحن بما قدمنا معترفون، ومما سلف منا معتذرون، فإن تعاقبنا فيما أجرمنا، وإن تعف عنا فبفضلك علينا، فاصفح عنا إذا ملكت، وامنن إذ قدرت، وأحسن إذ ظفرت، فطالما أحسنت إلى من أساء منا، فقال المنصور: قد فعلت، ثم قال للحرسي: هذا خطيبهم، وأمر برد ضياعه عليه بالغوطة**"(١)

يلحظ في سياق هذا النص أن المعنى العام، هو التماس العفو والصفح، والاستعطاف من أهل الشام للخليفة المنصور، وذلك خوفًا من عقاب المنصور الذي سيلحق بهم إثر تواطؤهم مع المتمرد على السلطة والخلافة عبد الله بن علي، وجاء خطاب الوفد بكل معاني العفو، حيث يطلبون من الخليفة المنصور التماس العفو، وأنهم نادمون عن تمردهم، وخروجهم عن طاعة السلطان، وهنا تظهر العلاقة بين الأنا والآخر، فيبدأ الأنا/ المتمرد المتمثل في وفد أهل الشام مخاطبًا الآخر/ السلطة، مستخدمًا الفصاحة في

(١) ينظر: أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العرب الزاهرة، مصر، مكتبة مصطفى الحلبي، ط١، ١٩٣٣م، جـ٣، صـ ٣٥.

طلب العفو، ومن بين بلاغة خطيب الوفد الذي استخدمها في طلب العفو، استعماله لأسلوب الأمر؛ كما جاء في قول الحارث بن عبد الرحمن:" فاصفح عنا إذا ملكت، وامنن إذ قدرت، وأحسن إذ ظفرت".

غير أن الأمر هنا خرج من حقيقته إلى دلالة مجازية، فالأمر موجه إلى السلطان، وصادر من الأدنى أهل الشام، فدلالة الأمر هنا مجازية وهي الالتماس والاستعطاف، فهم يطلبون العفو والصفح، وهذا الأمر الموجه إلى السلطان أوجب حضور الآخر/ السلطة، كما تظهر العلاقة بين الأنا والآخر في النص ويلحظ ذلك في فعل الأمر**(فاصفح)**، والذي يحيل المتلقي إلى حضور الآخر/ السلطة القوية، وحضور هيبته وسلطته في العقاب؛ كما حقق أسلوب الأمر مدى خوف الأنا من الآخر/ الخليفة، وتكمل الأنا/ المتمردة الخائفة من عقاب السلطان في طلب العفو بأسلوب الأمر، بالإحسان إليهم **(وأحسن إذ ظفرت)**، يظهر هنا أسلوب الأمر مدى حضور الآخر، وتحقق تشكله في ثنايا النص من خلال العاطفة التي هيمنت على الأنا، وهي الخوف والاستعطاف، فأسلوب الأمر حقق حضور الآخر في النص وتشكله الفني، فجاء النص معبرًا عن العلاقة بين الأنا المتمردة/ أهل الشام، وبين الآخر/ السلطان القوي، كل هذه الدلالات التي يستنبطها المتلقي من أسلوب الأمر كشفت عن حضور الآخر في النص.

ويظهر أسلوب الأمر معبرًا عن مشاركة الآخر هموم الذات العباسية مواسية لوفاة المنصور، فيقول (أبو العيناء):

"**آجَرَ الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله، وبارك الله لأمير المؤمنين فيما خلّفه له أمير المؤمنين بعده، فما مصيبةٌ أعظم من فَقْدِ أمير المؤمنين، ولا عُقْبَى أفضل من وراثة مقام أمير المؤمنين، فاقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية، واحتسب عند الله أفضل الرِّزية**". (١)

يلحظ هنا أن أسلوب الأمر ظهر في لفظتي (اقبل/ احتسب)، تلك اللفظتين تلعب دورًا مهمًا في مواساة الذات العباسية ومشاركة الآخر الذات وجدانيًّا؛ كما يلعب دورًا حاسمًا في تشكيل صورة إيجابية عن "الآخر" وتوجيه سلوك المتلقي نحو القبول والصبر، وهذا الأسلوب يرتبط بقيم روحية عالية ويسهم في تعزيز الهوية الجماعية.

ومما ورد الأمر بصيغة مكثّفة في نص خطبة هارون الرشيد، الذي يوصي بتقوى الله؛ لأنها أساس الإيمان ومفتاح النجاة عند الله، وبها تنال رحمة الله، وقد كان

(١) إسماعيل علي محمد، فن الخطابة ومهارات الخطيب، بحوث في إعداد الخطيب الداعية، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط٥، ٢٠١٢، ص٧٦.

أسلوب الأمر الأبرز في كلّ الأساليب ومنه قوله: **(أحّذركم يوما تشخيص فيه الأبصار)**[١]، هو طلب بأسلوب فعل الأمر قيل لغرض الحذر من يوم القيامة، وتأخير عقاب البشر، وإن أنزل العذاب بهم إلى يوم تشخيص الأبصار.

وقوله: **(أمركم بما أمر الله)** [٢] وهو طلب بأسلوب فعل الأمر، الذي خرج لغرض النصح والإرشاد بالالتزام بطاعة الله سبحانه وتعالى، ومنه قوله: **(أنهاكم عما نهى الله عنه)** [٣] وهو أمر غايته وجوب الالتزام بما نهى الله سبحانه وتعالى عباده. ومنه: **(وإّياكم والأماني فقد غرت وأوردت)** [٤] أمر غايته الالتزام باجتناب الأخذ بالأماني، ومنه **(حصنوا إيمانكم بالأمانة)** [٥] هو أمر طرح لغرض النصح والإرشاد بلزوم تحصين الإيمان بالأمانة، وهذا الأسلوب كشف للمتلقي ثقافة الخليفة وحرصه على الآخر من خلال تذكيره وأمره بطاعة الله واجتناب نواهيه.

ويمكن أن يلحظ هذا الأسلوب في خطبة الخليفة المهدي العباسي، الذي يوصي بتقوى الله وإنذار من عصي بعذاب أليم، وجزاء الطاعة بجنة عرضها السموات والأرض والتحذير من الركون إلى الدنيا، ويتجلى هذا الأسلوب في قوله **(أحثّكم على إجلال عظمته)**[٦]، وهو طلب بأسلوب فعل الأمر الذي خرج لغرض النصح والإرشاد بالالتزام طاعة الله عّز وجل.

ومنه: **(فاجتنبوا ما خوفكم الله شديد العقاب)** [٧]وهو أمر غايته الإلزام بأمر اجتناب الخوف من شديد العقاب. ومنه: **(أنهاكم عما نهاكم الله منه)** [٨] وهو أمر غايته وجوب الالتزام بما نهى الله سبحانه وتعالى عباده، هذه المواضع توحي بثقافة الذات العباسية الدينية التي تحاول إرساء دعائم الدين الإسلامي الحنيف في الآخر؛ إذ تذكره بأوامر الله عز وجل ونواهيه.

(١) حسن علي الهنداوي، فن الخطابة العربية من الألف إلى الياء، ٢٠٢٣م، ص٤٩٢.
(٢) نفسه، ص٤٩٢.
(٣) نفسه، ص٤٩٢.
(٤) نفسه، ص٤٩٢.
(٥) نفسه، ص٤٩٢.
(٦) نفسه، ص٤٨٩.
(٧) نفسه، ص٤٨٩.
(٨) نفسه، ص٤٨٩.

المبحث الثاني/ التراكيب اللغوية والآخر:

تلعب التراكيب اللغوية دورًا حاسمًا في تشكيل صورة الآخر في النص النثري، من خلال اختيار الكلمات والعبارات المناسبة، وبناء الجمل بشكل معين، حيث يمكّن للكاتب أن يؤثر بشكل كبير على نظرة القارئ إلى الشخصيات الأخرى في النص.

-التقديم والتأخير:

تزخر اللغة العربية بكثير من السمات والخصائص التي تميزها عن غيرها من اللغات الأخرى، ومن بين تلك الخصائص أسلوب التقديم والتأخير، فلا يوجد نص أدبي يخلو من هذا الأسلوب المتميز، فهو خروج عن قواعد اللغة ونظامها المعروف، وإنتاج صورة جديدة لترتيب الجملة، ويحدث ذلك النظام وفق تناسب المعنى وأغراضه البلاغية والجمالية، التي يسعى الأديب المبدع إيصالها لذهن المتلقي في صورة مغايرة، فالتقديم والتأخير من أحد التقنيات الفنية التي تسهم في الكشف عن صورة الآخر داخل النص الأدبي، وإبراز علاقته بالأنا، فالكتاب يستخدم التقديم والتأخير لتخصيص معنى أو الاهتمام بآخر، أو لإيضاح معنى خفي يستنبطه المتلقي من تلك التقنية، فالتقديم والتأخير " **تغيير يطرأ على النسق المثالي للجملة، فيقدم عنصرًا نحويًا ويؤخر آخر لغاية بلاغية جمالية تؤثر في نفس المتلقي، وتناسب مقتضى الحال**". (١)

ويوضح الجرجاني بلاغة التقديم والتأخير وجمالياته فيقول: " **هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، لايزال يفتر لك عن بديعه، ويقضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطُف عندك أن قدم فيه الشيء وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان آخر**". (٢)

ويلحظ هنا أن الجرجاني كشف عن جمال الصيغة التعبيرية للتقديم والتأخير، حتى وإن كان ذلك بخرق قواعد اللغة، وترتيب العناصر اللغوية داخل التركيب، فيكون ذلك الترتيب لغرض بلاغي ولغوي يستلطفه المتلقي عند سماعه، ويخدم التقديم والتأخير بتلك الجماليات العلاقة الثنائية بين الأنا والآخر، وكشف صورة الآخر بتشكلاتها المختلفة، من خلال تقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم، فيسعى المتلقي لفهم تلك العلاقة المغايرة ومقاصدها.

(١) ينظر: محمد عبد المطلب، البلاغة العربية، الشركة المصرية العالمية- دار نوبار- ١٩٩٧م، صـ ١٠٦.

(٢) ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، ج١/ ص٦.

أسلوب التقديم والتأخير والآخر:

عندما أخذ المنصور بيعة الخلافة لابنه المهدى، بدأ في نصحه وتوجيهه ورسم له دستور الرعية في التعامل بالسياسية، التي تساعده في خلافته، وتعد وصايا المنصور لابنه المهدي هي ثمار خبرته في الحكم وسياسة الرعية، وتضمنت تلك الوصية بعض التقنيات الفنية، التي استطاعت أن تحقق صورة الآخر/ الابن وريث الحكم والخلافة، وتتمثل الأنا في صورة الأب، الذي يرسم لابنه دستور الحكم، واختلطت مشاعره في الوصية بين الخوف والتحذير والشدة، واشتملت الوصية على أسلوب التقديم والتأخير في أكثر من موضع، والتي أسهمت بدورها في الكشف عن صورة الآخر داخل النص.

قال أبو جعفر المنصور يوصي المهدي:

" **اتق الله يا بني فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدي، يجعل لك فيما كربك وحزنك مخرجًا، ويرزقك السلامة، وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب، احفظ يا بني محمدًا –صلى الله عليه وسلم– في أمته، يحفظ الله عليك أمورك، وإياك والدم الحرام، فإنه حوب عند الله عظيم، وعار في الدنيا لازم مقيم، والزم الحلال فإن فيه ثوابك في الآجل، وصلاحك في العاجل**".(١)

بدأ (أبو جعفر المنصور) وصيته بنبرة دينية، يوصي فيها ابنه (المهدي)، بتقوى الله في الرعية والابتعاد عن الحرام مستعملًا لغة سهلة وبسيطة تناسب مقام الوصية، ويلحظ في هذه الوصية أن أبا جعفر المنصور، استعمل أسلوب التقديم والتأخير، والذي حقق تشكّل صورة الآخر، فالمتلقي يستطيع استنباط صورة الآخر، والتي تمثلت في الابن وريث الحكم، والأنا في صورة الأب الذي يوصي ابنه، فأسلوب التقديم والتأخير ظهر بشكل لافت للنظر في هذه الوصية، وفي أكثر من موضع فيقول المنصور:" **يجعل لك فيما كربك وحزنك مخرجًا**"، يلحظ أن المنصور قدم شبه الجملة (لك) على المفعول به (مخرجًا)، وهنا أفاد التقديم التخصيص، فبعد أن نصحه بالتقوى بيّن له ثمارها، وهي أن الله يجعل له فخصص المخرج له، وهنا يلحظ أن المنصور تملكته عاطفة الإشفاق على ابنه، الذي يريده أن يلزم تقوى الله حتى لا يقع في كربات ومصائب في الحكم، فتقديم شبه الجملة (لك) التي أفادت التخصيص، استحضرت صورة الآخر الابن الذي ينصت لوصية أبيه في لزومه لتقوى الله وكشف عن علاقة الآخر بالأنا/ الأب الحكيم؛ كما استحضر التقديم صورة الآخر بشكل فني كحيكم يسعى لرسم دستور الحكم فيمن يرث

(١) ينظر: أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العرب الزاهرة، ج٣، صـ ٣١.

الحكم بعده وهو الآخر/ الابن الذي يرث الحكم بعده، وبعد أن بيّن له أن التقوى تصنع له مخرجًا.

كما جاء في موضع آخر تقديم شبه الجملة أيضًا حيث يقول:" **يحفظ الله عليك أمورك**"، فقدم هنا شبه الجملة (عليك) على المفعول به؛ كما أفاد التقديم أيضًا التخصيص والاهتمام، فما زال الأنا/ الأب الحكيم يوضح للآخر/ الابن وريث الحكم ثمرة التقوى ونتاجها في سياسة الرعية، ومن بينها أن يحفظ الله عليه أموره، فقدم شبه الجملة لتخصيص الحفظ، وللاهتمام بتلك الثمرة، وهي أن يحفظ الله عليه أموره؛ كما أبرز التقديم هنا صورة الآخر الابن الذي يعدد ثمار التقوى والسياسة الدينية من الأنا/ الأب الحكيم الذي يخاف على ابنه من سياسة الرعية.

كما يلحظ أيضًا تقديم الضمير (إياك) حيث يقول: "**وإياك والدم الحرام**" والذي يفيد التحذير والبعد عن الحرام؛ كما يفيد تخصيص التحذير له، استطاع تقديم الضمير هنا أن يحقق حضور الآخر بشكل فني، من خلال تصور الآخر/ الابن الذي يتلقى التحذير من الأنا/ الأب الحكيم، ويحفظ تلك الأمور؛ لتعينه في سياسة الرعية؛ كما خصص الأنا تحذير الآخر بهذا الأمر، وهو الاقتراب من الدم الحرام، وناسب هنا الشدة في التحذير بتقديم الضمير؛ لأن المحذر منه يستوجب الشدة، وهو الاقتراب من الدم الحرام، كل هذه التقنيات الفنية لأسلوب التقديم والتأخير أسهمت في حضور الآخر بشكل جليّ.

-أسلوب الاعتراض:

تعرّف الجملة الاعتراضية، بأنها تلك " **الجملة التي تعترض بين شيئين يحتاج كلّ منهما الآخر، والنّحويون يقولون إن هذا الاعتراض يفيد توكيد الجملة وتقويتها**" (١)، وهي جملة مكتملة لا تحتاج لغيرها، وغرض وجودها إفادة الكلام؛ كما يوضح ذلك ابن هشام بقوله:" **وجملَة الاعْتِرَاض تلك لَا تكون إِلَّا كلَاما تَامًا.. لإِفَادَة الْكَلَام تَقْوِيَة وتسديدًا أَو تحسينًا**" (٢)، وكما أن الجملة الاعتراضية لها دور نحوي في السياق أيضًا لها دور ثقافي؛ إذ إنها تكشف عن حضور الآخر وهيمنته داخل بنية المصر النثري.

ويمكن التعرف على الجمل الاعتراضية ودورها في الكشف عن الآخر بصوره المختلفة في رسالة أبو إسحاق الصابي في الاعتذار والاستماحة للصاحب بن العباد، **إذ يقول:** "أنا أعتذر إليك سيدي – أطال الله بقاءه– من تأخر كتبي عن حضرته الجليلة بعذر إذا ما تأمله حق تأمله، وعرض على نقده وتمييزه، وعرف صدق منطقه وخلوص

(١) عبده الراجحي، التطبيق النحوي، الأردن، عمان، دار المسيرة، ط ٣، ٢٠٠٨، ص٣٦٠.

(٢) الإمام أبي محمد عبد الملك، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، المحقق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٣، ٢٠٢٢م، ج١، ٤٩٢-٥٠٦.

مصدره، علم أنني مواصل بباطن مرادي، وإن صرمت بظاهر فعلي، وملازم بخافي مقصدي، وإن أخللت مسلكي، وهو أنني جربت مكاتبته – أيده الله– مواظبا عليها، مكبا ومراخيا بين أوقاتها، مغبا لأتبع بين الأمرين إليه، وأوقعهما لديه، فلما لاح لي أن الإجمام أنفق والترفيه أوفق، ووثقت بأن رأيه عليَّ في الحالين محروس النواحي والجوانب، محمي الشرائع والمشارب، اقتصرت على أن أتعرف أخباره، وأسر باستقامتها وانتظامها، وأتنسم أحواله وأسكن إلى اطرادها والتئامها، وأبتهج بما يصير – أيده الله – من ذروة مرتبة يعتليها، وغارب مرقبة يمتطيها، وإن أدل المتحدثين عنهما، والسامعين بهما، على أنه لم يستوف بعد حظه، ولم يستوعب قسطه، فإن للدنيا مواعيد فيه لابد من أن ينجزها بمساعيه، وما أخاف في هذا القول – والحمد لله – من غلط الفراسة، ولا كذب المخيَّلة، ولا بمعارضة المعارض، ومناقضة المناقض، ولا أعدم صحة الشهادة، وقيام الدلالة، وقبول المستمع، وتشيع المتبع ، وكفى بعلم بالله أنني أغتبط بنعمه – جل وعز– عنده، اغتباطي بها إذا كانت عندي، وأعتقد أنها في فنائه – عمره الله– مستقرة الوطن قاطنة، وفي كثير من الأفنية قلقة الركاب ظاعنة، لبعد فضلاء الزمان عن مساواته في استحقاقها، ومداناته في استيجابها واستبداده عليهم بحيازة ما يتفرق فيهم، واستكمال ما يتقسم بينهم من أصل راسخ، وفرع شامخ، وحلم راجح، وقدر طامح، وأدب جزل، ومنطق فصل، وقريحة ثاقبة، ودراية صائبة، ونفس سامية، وكف هامية وأوصاف لا تعبر عنها بلاغة الفصحاء، ولا يحيط بها استحفاز الخطباء، ولا تجاريه فيها أقدام النظراء، ولا تزاحمه عليها مناكب الأكفاء، بل هي مسلمة إليه إذا نوزع مدَّعوها، ومقر له بها إذا دوفع منتحلوها، فالحمد لله على أن أعطى قوس السيادة منه باريها، وأضافها إلى كفئها وكافيها، وفسخ بها شرط الدنيا الفاسد في إهداء حظوظها إلى أوغادها، ونقض له حكمها الجائر في العدول بها عن نجباء أولادها، وإياه أسأل سؤال الضارع إليه، الطالب لديه، أن يطيل بقاء سيدي الإطالة المترامية، ويوفيه أقصى المدد المتمادية، ولا يعدمه التوقل في هضباته، على رفاغة من معاشه والارتقاء إلى درجاته في سكون من جأشه، ولا يبتليه في شيء منها بعثرة ولا هفوة، وأن يبلغه مدى همته العالية المشتطة، وأمنيتي له المنفسحة المنبسطة، فلا مزيد عليه أيده الله لمفرط مسرف، ولا علي في هذه لمتطلع متشوف.

وأما بعد – أيد الله سيدي الصاحب– فإن نوب الدهر تتردد مذ سنون علي وعلى أهل صناعتنا المنحوسة بالعراق، منيخة بنوازلها، ملقية بكلاكلها، كالحة بوجوهها، كاشرة عن أنيابها، لتعاقب الأيدي الوالية علينا، وتزايدها في الفظاظة بنا، وتجاوزها المنزلة إلى المنزلة في الاستئصال لأحوالنا، وقد توفر قسطي في تأثيرها، بحسب ضني بعرضي،

وصوني لنفسي، وبذلي دونها مالي، ووقايتي إياهما بما ملكت يدي حيث لم أسأل المعونة أحدا، ولا سمحت أن أستميح مسودا ولا سيدا، راجعا إلى شيء مما يرجع إليه الناس من موروث تالد، ومكتسب طارف، حتى انتهت مغارمي إلى نحو خمس مائة ألف درهم، لم يبق لي بعدها ضيعة ولا منزلة، ولا باطن ولا ظاهر، فلما صارت صروف الدهر تتوغل بعد التطرف، وتُجحف بعد الحيف، وصادف ما تجدد علي منها في الوقت أشلاء منهوكة وأعظما مبرية، وحُشاشة مُشفية، وبقية مودية، فارقت الإيثار، وأطعت دواعي الاضطرار، وجعلت أختار الجهات وأعتام الجنبات؛ لأنحو منها ما لا يعاب سائله إذا سأل، ولا يخيب آمله إذا أمَّل، فكان سيدي – أدام الله عزه– أولها إذا عددت، وأولاها إذا اعتمدت.

وكتبت كتابي هذا بيد يكاد وجهي يتظلم منها إذ تخطه إشفاقا على مائه مما يهرقه لولا الثقة بأنه – أيده الله– يحقن مياه الوجوه ويحميها، ويجمها ولا يقذفها، وخاصة من كانت له في نفسه المزية التي لي على غيري ممن شحطت داره من أوليائه وأودائه، بمشاهدتي شخصه الشريف، واعتلائي حبله الحصيف، وكوني معه تحت ظل الدولة والجملة وعصمتها، وفي ذمام الممالحة والمراضعة وحرمتهما، والأسباب التي هولها بكرم عهده حافظ، وعين رعايته ملاحظ، وأنفذت درجه كتابا إلى مولانا الأمير مؤيد الدولة سلكت فيه سبيل العبد اللائذ بمولاه، والخادم المحتاج إلى نداه، وأشرت إلى ما كان سيدي –أيده الله– قدمه قبل ذلك الوقت من ذكري، وما تفضل ومهده من أمري، ورجوت استثمار تلك المقدمة على يده وبركته، واستنجاحهما بيمن طائره ونقيبته، وكل ما يتأتى من الجميع محسوب من جماله، ومعدود في أفضاله، وزائد في أياديه البياض الزهر، وعوارفه المحجلة الغر، وسيدي الصاحب – أطال الله بقاءه– ولي ما يراه فيما سألت واقترحت، واشتططت واحتكمت، جامعا لي من ماله وجاهه، فإن تضاعف هذه المحن يقتضي مضاعفة ما يطوقنيه من المنن، لأكون ما عشت طليقه من حبائله وإسارها، وعتيقه من مخالبها وأظفارها، والإيعاز بإجابتي بما ابتهج له من طيب خبره وحاله، وامتثله من عالي أمره ونهيه، إن شاء الله" . (١)

تتمتع تلك الرسالة **بكثافة الجمل الاعتراضية، حيث ظهرت (ثماني مرات)**، ما بين أيده الله، وعمره الله، وأطال الله بقاءه، وعول عليها مرة واحدة في الثناء على الله عز وجل، في قوله: وما أخاف في هذا القول–والحمد لله–من غلط الفراسة، والتي تلعب دورًا محوريًا في الكشف عن طبيعة العلاقة بين الكاتب والآخر (الصابي/ الصاحب بن العباد).

(١) شكيب أرسلان، المختار من رسائل أبي إسحاق إبراهيم بن هلال بن زهرون الصابي، الطبعة الأولى –الدار التقدمية– ٢٠١٠م، ص ٢١٤– ٢١٧.

ويلحظ كثرة الجمل الاعتراضية التي تحمل صيغ المبالغة في الثناء والمدح على "الآخر"، مثل "أيده الله"، "عمره الله"، وغيرها. هذا التكرار المتكرر للثناء يهدف إلى كسب رضا "الآخر" وإرضائه، وكشف عن رغبة الكاتب في إرضاء هذا الشخص والحصول على رضاه.

كما تظهر الجمل الاعتراضية أن الكاتب يشعر بالخضوع والتبعية لـ"الآخر"، حيث يصف نفسه بأنه عبد وخادم لهذا الشخص. هذا يدل على علاقة غير متوازنة بين الطرفين، حيث يمتلك "الآخر" سلطة مطلقة على الكاتب.

ويتضح من خلال الجمل الاعتراضية أن الكاتب يشعر بالخوف والقلق من "الآخر"، حيث يستخدم صيغ التوسل والرجاء للحصول على مساعدته. هذا يدل على أن الكاتب يرى في "الآخر" مصدرًا للقوة والحماية، وهو يعتمد عليه بشكل كبير، وعلى الرغم من أن الجمل الاعتراضية موجهة بشكل أساسي إلى "الآخر"، إلا أنها في بعض الأحيان تحمل أيضًا نوعًا من التملق الذاتي، حيث يصف الكاتب نفسه بصفات إيجابية مثل الأمانة والنزاهة. هذا يدل على رغبة الكاتب في إبراز نفسه كشخص جدير بالثقة والاحترام.

النتائج:

إن الأساليب اللغوية في النثر العباسي أسهمت في ظهور الآخر بتشكلاته كافة؛ كما أنها وضحت العلاقة التي تربط الأنا بالآخر؛ إذ عبّر الأدباء والكتاب والخلفاء في نصوصهم النثرية عن رؤيتهم للحكم والخلافة، فقد كشفت عن مقدرتهم الفنية في جذب انتباه المتلقي وإثارة ذهنه من خلال اعتمادهم على أسلوب بديع تحكمه الحجج المنطقية التي تكشف عن علاقة الذات بالآخر العربي وغير العربي على حد سواء.

تلعب التراكيب اللغوية دورًا حاسمًا في تشكيل صورة الآخر في النص النثري، من خلال اختيار الكلمات والعبارات المناسبة، وبناء الجمل بشكل معين، حيث يمكّن للكاتب أن يؤثر بشكل كبير على نظرة القارئ إلى الشخصيات الأخرى في النص.

تلعب الجمل الاعتراضية دورًا حاسمًا في الكشف عن طبيعة العلاقة بين الكاتب و"الآخر"، حيث تكشف عن التفاوت في السلطة والمكانة بين الطرفين، وتبرز الخضوع والتبعية التي يشعر بها الكاتب تجاه "الآخر". كما تكشف هذه الجمل عن الدوافع التي تحرك الكاتب، مثل الرغبة في كسب الرضا والحماية، والرغبة في إبراز الذات.

المصادر والمراجع:

١) إسماعيل علي محمد، فن الخطابة ومهارات الخطيب، بحوث في إعداد الخطيب الداعية، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط٥، ٢٠١٢.

٢) الإمام أبي محمد عبد الملك، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، المحقق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٣، ٢٠٢٢م.

٣) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العرب الزاهرة، مصر، مكتبة مصطفى الحلبي، ط١، ١٩٣٣م.

٤) الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)، رسائل الجاحظ، تحقيق/ عبد السلام هارون، القاهرة- مكتبة الخانجي، ١٩٦٤م.

٥) جمعة سيد يوسف، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، سلسلة عالم المعرفة ١٩٩٠م.

٦) حسن علي الهنداوي، فن الخطابة العربية من الألف إلى الياء، ٢٠٢٣م.

٧) الخطيب القزويني (ت: ٧٣٩هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد خفاجي، دار الجيل- بيروت- ط٣.

٨) خليل أحمد عمايرة، في التحليل اللغوي، مكتبة المنار، ط١، ١٩٨٧م.

٩) دهنون أمال، جماليات التكرار في القصيدة المعاصرة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، بسكرة ع١ و٢، جانفي، جوان، ٢٠٠٨م.

١٠) شكيب أرسلان، المختار من رسائل أبي إسحاق إبراهيم بن هلال بن زهرون الصابي، الطبعة الأولى -الدار التقدمية- ٢٠١٠م.

١١) صالح سليم عبد القادر، الدلالة الصوتية في اللغة العربية، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية.

١٢) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة.

١٣) عبده الراجحي، التطبيق النحوي، الأردن، عمان، دار المسيرة، ط ٣، ٢٠٠٨م.

١٤) عز الدين السيد، التكرير بين المثير والتأثير، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.

١٥) ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية، صدر الدين بن علي بن محمد، المكتب الإسلامي، ط٤ ، بيروت، ١٩٧١م.

١٦) أبو الفتح ابن جني (ت٣٩٢ هـ)، الخصائص، تح/ محمد علي النجار، بيروت، عالم الكتب.

١٧) ماهر مهدي هلال، جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والاعلام، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠م.

١٨) محمد عبد المطلب، البلاغة العربية، الشركة المصرية العالمية– دار نوبار– ١٩٩٧م.
١٩) محمد محمود الدروبي، رسالة جديدة للجاحظ في مناقب خلفاء بني العباس: دراسة وتحقيق، الكويت: حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية ٢٢ (الرسالة ١٨٧)، ٢٠٠٢م.
٢٠) مراد عبد الرحمن مبروك، من الصوت إلى النص نحو نسق منهجي لدراسة النص الشعري، عالم الكتب، ١٩٩٣م.
٢١) مصطفى الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المكتبة العصرية – بيروت– لبنان– ط١.